خطابُ واقعةِ الطّفِ دراسةٌ في حُجّةِ الإيتوس

م.د. ميثم صدام شاطي
قسم اللغة العربيّة/كلية التربية الأساسيّة/ الجامعة المستنصرية/ بغداد/ العراق
maethm.sh@uomustansiriyah.edu.iq

المخلص:

(سعى هذا البحث إلى اكتشاف أثر الإيتوس في خطاب واقعة الطف، لما له من أهميّة كبيرة في التأثير في المتلقي، ويكشف استعمال الباث خطابات مختلفة بحسب اختلاف الجمهور، سواء كان هذا الجمهور موافقًا للباث أو مخالفًا له، أو له معرفة جيدة بالباثّ وله أيتوس مؤثر فيهم، أو كانوا يجهلون أيتوسه قبل الخطاب فبنى ايتوسه في أثناء خطابه، وقبل هذا عرفت بالايتوس وأثره في الخطاب، وذكرت أنواعه التي من أهمها ايتوس الخطاب وايتوس ما قبل الخطاب، ووقفت على تعريف أرسطو للأيتوس وخلصت إلى أنَّه عني بإيتوس الخطاب وايتوس ما قبل الخطاب خلافا لما وسم به ارسطو من عدم عنايته بإيتوس ما قبل الخطاب)

الكلمات المفتاحية (خطاب/ واقعة الطف/حجة الإيتوس/ إيتوس خطابي/ إيتوس قبلي).

The Discourse of the Karbala Tragedy: An Ethos-Based Analysis

Dr. Maitham Saddam Shati
Department of Arabic Language, College of Basic Education، Al-Mustansiriyah University, Baghdad, Iraq.

Abstract
This study sought to explore the impact of ethos in the discourse of the Battle of Karbala, given its significant influence on the audience. It reveals how the speaker employed different forms of discourse depending on the nature of the audience—whether the audience was supportive of the speaker, opposed to him, well-acquainted with him and his influential ethos, or unfamiliar with his ethos prior to the speech, in which case he constructed his ethos during the discourse. Prior to this, ethos and its rhetorical effect were defined, and its types were outlined—most notably, discursive ethos and pre-discursive ethos. The study also examined Aristotle's definition of ethos, concluding that he addressed both discursive and pre-discursive ethos.

المقدمة

اقصد بخطاب واقعة الطف ما تعلق بالواقعة من بداية رحلة الواقعة مرورًا بالمعركة، وما تبعها من خطابات متنوعة في مسير أهل بيت الإمام الحسين عليه السلام وما لاقوه في الكوفة والشام.

وستكون دراستنا هذه لحجة الإيتوس وأثرها في المتلقي سواء كان هذا الإيتوس يتعلق بالخطاب أو ما قبل الخطاب، وسواء كان المتلقي للخطاب ممن يوافق الخطيب وهو في صفه، أو ممن يخالفه، وبالضد منه.

تمهيد

الحجاج بالإيتوس أقصد بها ما يصطلح عليها ارسطو حجة الإيتوس التي يجند المحاجج كل ما يساهم داخل التلفظ الخطابيّ في إرسال صورة عن الخطيب في اتجاه المخاطب من مثل: الانتقالات الصوتية واختيار الكلمات والحجج والحركات والايماءات أو ما تسمى بلغة الجسد والتي عن طريقها يعطي مبدع النص صورة سيكلولوجية وسوسيولوجية عن نفسه.

والإيتوس له أكثر من معنى في الترجمة، فهو عند بعضهم أخلاق الخطيب، ويدلُّ عند بعضهم على الوصف الخلقيّ، وله عند فريق ثالث بمعنى الصورة، وله معنى أيضًا هو العادات الخطابيّة ويستعمل بمعنى السّمت واللهجة والنبرة (د. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب: 117).

ولا شكَّ أنَّ ترجمة الإيتوس بهذا المصطلح أو ذاك ليست مسألة شكليّة بل هي تعكس اختلافًا في جهات النظر وأبعادًا متعددة وهذا يعني أنَّ الإيتوس ظاهرة مركبة وتحمل أكثر من دلالة، فقد يشدُّ الباثُّ السامعين بنبرة بصوته يتميز بها وبإيقاع في جملة لا توجد عند غيره.

الاقناع بحجة الإيتوس:

قسّم أرسطو كما هو معروف الحجج على ثلاث (أوليفيي روبول، مدخل إلى الخطابة:76-77):

الأول: حجة الإيتوس، وهي حجة تعبرُّ عن صورة المتكلم لدى المتلقي، وتمثل مجموعة الخصال المؤديّة إلى تعزيز ثقة السامع بالمتكلم.

الثاني: حجة الباتوس: تعبر عن الانفعالات والمشاعر التي يرغب الباثُّ في أثارتها لدى متلقي الخطاب.

الثالث: حجة اللوغوس: ترتبط بالخطاب اللغويّ نفسه، وما يحمل من قيم لغويّة، من مثل القياس والحجج، التي تؤدي إلى الإقناع للمتلقي.

الحجاج بالإيتوس هو ترك " انطباع حسن عند المخاطب، وذلك بواسطة الطريقة التي يُبنى بها الخطاب، ومن خلال تقديم صورة عن الذات قادرة على إقناع المخاطب والفوز بثقته" (حسن المودن بلاغة الحجاج بالأيطوس والباطوس بحوث وترجمات بلاغة الحجاج: 85).

وربّما أعجبهم منه مظهر لائق وهيأة تبعث على الارتياح، أو أخلاق يتحلى بها ترفعه في أعينهم وتجعله موضع ثقة عندهم. (د. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب: 117).

وقد حصر أرسطو الخصال التي يجب أن يتحلى بها الخطيب لكي يتحقق الإقناع، وهي: "اللب، والفضيلة، والبر؛ لانَّ الخطباء إنّما يخطئون بينما يقولون النصيحة التي يسدونها إذا فقدوا هذه الخصال الثلاث كلها أو واحدة منها، فإنهم إذا فقدوا اللُّبَ كانت ظنونهم فاسدة، وآرائهم غير سديدة، وإذا كانت آراؤهم صحيحة فإنَّ شرارتهم تحملهم على ألا يقولوا ما يعتقدون، أو إذا كانوا ذوي لبٍّ وخير، فإنهم قد يعوزهم البر (حبُّ الخير) ومن هنا فقد يحدث ألا يسدوا خير النصائح". (أرسطو، الخطابة: 103).

1- الفطنة: أن يكون الخطيب فطنًا يشاور العقلاء، ويزن الأمور جيدًا، وينماز بالحكمة.

2- الاستقامة: إنّها صراحة لا ترهب تبعاتها.

3- اللطافة: يتعلق الأمر بعدم تهييج الجمهور وعدم ارهابهم، وأن يكون الخطيب ودودًا وجذابًا.

فهذه الخصال التي ذكرها أرسطو تزيد من مكانة الخطيب عند جمهوره، وتوسع مجال قبولهم لما يطرحه الباثَّ عليهم، وتزيد من تسليمهم بها،

وتعصبهم لها، ويقول بلسان حاله" اتبعوني(الفطنة)، واحترموني(الاستقامة) وأحبوني(اللطافة)" (د. كمال الزماني الحجاج بالإتوس في الخطاب السياسي: 28).

ويرى شارودو أنَّ كل فعل يسهم في بناء صورة للذات المتكلمة، فمنذ لحظة شروعنا في الكلام، فما نقوله يظهر جزءًا من كينونتنا وما نحن عليه سواء أكان هذا تم بإرادتنا أم تم بطريقة عفوية، وهذا الأمر يحمل الباثُّ على أنْ يكون حريصًا في تقديم صورة عن ذاته قادرة على التأثير في المتلقين. (د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي:51).

والإيتوس يمكن أن يقسم على قسمين هما:

1- ايتوس ما قبل الخطاب.

2- ايتوس الخطاب.

قبل أنَّ نفصّل في حجة الإيتوس نرى أنَّ عبارة ارسطو في كتابه الخطابة في حديثه في الأيتوس فيها لبس كبير، وقد اختلف الباحثون في تفسيرها، نلحظ ذلك في عبارته الأتية: "والخطيب يقنع بالأخلاق إذا كان خليقًا بالثقة؛ لأنّنا سنستشعر الثقة على درجة أكبر وباستعداد أوسع، بأشخاصٍ معتبرين في كلّ الأمور بوجه عام". (أرسطو، الخطابة:29-30).

فهو في هذا الموضع يؤكد على أهمية أخلاق الخطيب التي تسبق الخطاب، ثمَّ يؤكد أنَّ التأثر "ينبغي أنْ يحدث عن طريق ما يقوله المتكلم لا عن طريق ما تظنه الناس عن خلقه قبل أنْ يتكلم". (أرسطو، الخطابة: 30).

ثم يردُّ أرسطو على من ينكر أنَّ الطيبة الشخصية التي يظهرها الخطيب لا تسهم في الإقناع "بل العكس ينبغي أنْ يعدَّ خلقه أقوى عناصر الاقناع لديه". (أرسطو، الخطابة: 30)، فهو هنا ربّما يقصد أنَّ المتلقين للخطاب يتأثرون في أخلاق الخطيب ساعة الخطاب وليس لهم شأن في حال

الخطيب خارج الخطاب. ثم يجزم بأنَّ الإقناع ينبغي أنْ يقع بسبب الكلام نفسه لا غير.

ويرى جان بيير روسينول "أنّه من المثير للاشمئزاز أنْ ينسب إلى هذا الفيلسوف أنّه يعتبر أنَّ نزاهة الخطيب وسمعته الطيبة لا أثر لها في إعطاء مصداقية ووزن لكلامه. (د. الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية: 213).

وهذا الأمر جعل بيير يلجأ إلى إعادة قراءة نصّ أرسطو فيما يخصُّ الايتوس إذ يقرأ النص بهذه الصورة: "يكون هناك دليل بواسطة أخلاق الخطيب، حين يقدمُّ الخطاب خلقًا يجعلُ من ينطق جديرًا بالثقة، وينبغي مع ذلك أنْ تكون مستوحاة ليس من الخطاب فقط، بل كذلك من سمعة النزاهة عند من يتكلم، وبالفعل فأنا لا أقاسم بعض معلمي الخطابة رأيهم، فهم يؤكدون أنَّ نزاهة الخطيب لا تسهم في شيء من الإقناع، إنَّ النزاهة الأخلاقية على العكس من ذلك، هي الوسيلة الأكثر نجاعة للإقناع تقريبًا. (د. الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية: 214).

والذي أميل إليه هذا التوجيه الذي ذكره (بيير) في قراءته لنصِّ أرسطو لكي يستقيم الكلام ويتم المعنى ويعالج هذا الاضطراب في النص، فيما ذُكِرَ في أول النصِّ وآخره في موضوع الإيتوس الخطابيّ وإيتوس ما قبل الخطاب (الإيتوس القبليّ).

الايتوس المنتَج والإتوس المستهدف:

قد يعمد منتج الخطاب إلى رسم صورة مميزة له لدى متلقي الخطاب، لكن الجمهور قد يبني له صورة أخرى مغايرة لما أردها الخطيب الباثُّ، فالخطيب أو الباثُّ قد يفعل كل ما في وسعه من أجل نقل صورة إيجابية لدى المتلقين، لكن تبنى له صورة مغايرة تمامًا لما أراده، فالمدرس مثلًا

الذي يريد أن يقدم صورة الجاد عن نفسه قد ينظر إليه على أنّه ممل، ومتسلط، والإنسان الذي يريد أنْ يقدم نفسه بصورة المنفتح واللطيف قد ينظر إليه بأنّه متملق براغامتي، والشخص الذي يقدم نفسه بصورة الإنسان الإعتيادي والمتسامح أو المتفهم قد تنظر إليه بأنه ضعيف الشخصية. (د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي: 40-41).

المبحث الأول:

إيتوس ما قبل الخطاب (الإيتوس القبليّ): ويقصد به ما يحمله متلقي الخطاب من معلومات سابقة تشكلت لدى الجمهور عن الخطيب من قبيل أخلاقه وسماته ومعارفه وعلومه، وهذه جميعها تسهم في إيتوس المتكلم، بمعنى يشمل كل المعطيات التي يملكها الجمهور عن الباث" كدوره في الفضاء الاجتماعي ووظائفه المؤسسية ووضعه الاعتباري، وسلطته وأيضًا التمثيل الجماعي والصورة النمطية اللذين يرتبطان بشخصيته". (د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي: 37).

وترى روث آموسي أنَّ إيتوس ما قبل الخطاب يتعلق بجملة من العوامل من أهمها (د. علي الشعبان، الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته: 543):

1- الدور الاجتماعيّ للخطيب (الوظائف المؤسساتية/ الموقع والسلطة).

2- ما يشاع عن الخطيب من ادعاءات سلبية كانت أو إيجابية.

إنَّ تقديم صورة الذات في تحليل الخطاب أصبح مشروطًا بإكراهات سابقة على ما هو خطابي، وهي تتعلق بالإطار الاجتماعي والمؤسسي للخطيب، فما يؤديه الخطاب من أدوار صار لازمًا أن يتوافق مع النماذج

الثقافية المجموعة التي يوجه لها بكلامه، وأن تشير إلى تمثلاتها الجماعية. (د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي:37).

وبالإمكان البحث في ايتوس ما قبل الخطاب بحسب الجمهور المتلقي للخطاب:

• المتلقون للخطاب ممن يتوافقون مع الخطيب أو الباثّ في الاتجاه أو الرؤية، ولم نقف عليّه فأثر هذا الإيتوس واضح فيمن نصر الحسين واستشهد معه.

• المتلقون للخطاب غير المتوافقين مع الخطيب أو الباثّ، ويحملون أفكارًا سلبيّة عن الخطيب الباثّ.

ومما جاء في أثر أيتوس الإمام الحسين عليه السلام على لسان أعدائه قال أحدهم: "حملت على حسين بالرمح فانتهيتُ إليه، فوالله لو شئت لطعنته، ثمَّ انصرفت عنه غير بعيد، وقلت: ما أسع بأن أتولى قتله: يقتله غيري، ... قال: فواللهِ ما رأيتُ مكسورًا [مكثورًا] قط قد قتل ولده وأهل بيته وأصحابه أربط جأشًا، ولا أمضى جنانًا ولا أجرأ مقدمًا منه، والله ما رأيت قبله ولا بعده مثله. (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك-: 543/5).

نلحظ أنَّ أثر الإمام الحسين شمل حتى من يقاتلونه ومن هم في معسكر عبيد الله ابن زياد، ويبدو أثر ايتوس الإمام واضحًا في قول أعدائه (ما رأيتُ مكسورًا) ووردت أيضًا مكثورًا أي قد أحيط به بكثرة من كلِّ جانب، وأراها أولى بسياق الحديث والفعل الصادر من أعدائه فرغم كثرتهم واحاطتهم بالحسين عليه السلام، كانوا لا يقدمون على قتله، وقد أخذته الجراحات والنزف الكثير في المعركة، وعلى الرغم من ذلك لم يقدموا على الإجهاز عليه (وقتله)، لما له من سؤدد وهيبة في نفوسهم.

ومما ورد عن عمر بن سعد قائد جيش الأمويين بعد أن أرسل له عبيد الله بن زياد بكتاب بيد شمر بن ذي الجوشن قال فيه": لا قرّب الله دارك وقبّح والله ما قدمت به عليّ، والله إنّي لأظنّك أنتَ ثنيته أنْ يقبل ما كتبتُ به إليه، أفسدتَ علينا أمرًا كنا رجونا أن يصلح، *لا* يستسلم والله حسين، *إنَّ نفسًا أبيّةً لَبينَ جنبيه*". (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك-:: 280/5).

فعمر ابن سعد متأثرٌ بإيتوس الحسين عليه السلام، ويعرفه ويعرف حاله ونفسه الأبيّة التي لا تقبل الظلم، نرى ذلك جليًّا في قوله الذي جعلته مائلًا، كيف لا وهو سليل النبوة، فهو سبط النبيَّ وأمه سيدة النساء وأبوه سيد الأوصياء، وهو أبيُّ الضيم.

وكان شبث بن ربعي يكره قتال الحسين وأصحابه، سُمِعَ شبث بن ربعي يقول: "لا يعطي الله أهل هذا المصر خيرًا أبدًا، ولا يسدهم لرشد الا تعجبون أنّا قاتلنا مع عليّ بن أبي طالب ومع ابنه من بعد آل أبي سفيان خمس سنين، ثمَّ عدونا على ابنه، وهو خير أهل الأرض نقاتله مع آل معاوية وابن سمية الزانية، ضلال يا لك من ضلال"(أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك-: 437/5).

فشبث بن ربعي يعرف من هو الحسين جيّدًا ويعرف أباه، فهو كان في جيش أمير المؤمنين وممن قاتل معه جيش الشام، وكان في جيش الإمام الحسن وقاتل معه، ثمَّ وقف بالضد من الحسين، وقاتله، فهو يلوم الزمان ويلوم أهل الكوفة الذي هو منهم، فعلى الرغم من معرفته بأحقيّة الحسين وموقفه الصريح في مواجهة يزيد، إلّا أنّه لم يكن على استعداد للتضحية، والوقوف مع الحقّ وأهله.

وما جاء في مجلس يزيد بن معاوية - الذي يعدُّ العدو الأول للإمام الحسين وآله-، أنَّ عليًّا بن الحسين السجاد، قال ليزيد: "أتأذن لي أنْ أرقى هذه الأعواد فأتكلم بكلام فيه لله تعالى رضا ولهؤلاء أجر وثواب، فأبى يزيد، وألح الناس عليه فلم يقبل، فقال ابنه معاوية: إئذن له ما قدر أنْ يأتي به؟ فقال يزيد: إنّ هؤلاء ورثوا العلم والفصاحة، وزقوا العلم زقًا، وما زالوا به حتى أذن له". (السيد عبد الرزاق المقرم، مقتل الحسين عليه السلام:371).

إنَّ (لإتيوس) الإمام السجاد عليه السلام أثر مهم في عدوه المباشر وهو يزيد بن معاوية، فيزيد يعرف خصائص الباث وسماته ووظائفه الاجتماعية نلحظ ذلك في قوله: (ورثوا العلم والفصاحة، وزقوا العلم زقًا)، فعلي بن الحسين بنى صورة ذاته لدى المتلقين، تقول آموسي: " إنَّ الكلمات تنبع من الملائمة بين الوظيفة الاجتماعية للمتكلم وبين خطابه، فالخطاب لا يمكن أنْ تكون له سلطة إذا لم يكن صادرًا عن شخص له مشروعية قوله في وضعية مشروعة". (د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي: 38).

ومما جاء في نسوة أهل البيت على لسان أعدائهم " عن قرة بن قيس التميميّ قال: نظرتُ إلى تلك النسوة لمّا مررنَ بحسين وأهله وولده صحنَ ولطمنَ وجوههن، قال: فاعترضْتُهنَّ على فرس، *فما رأيتُ منظرًا من نسوة قط كان أحسن من منظر رأيته منهنَّ ذلك اليوم، والله لهنَّ أحسن مِن مَها يَبرين*" (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك-:: 456/5).

فعلى الرغم ما بهنَّ من الثكل والمصائب العظيمة التي حلّت بهنَّ إلّا أنهنَّ بقينَ محافظات على عفتهنّ ورباطة جأشهنّ، و(يبرين) منطقة في

جزيرة العرب كثيرة النخل العيون العذبة ومعروفة بالـ(مها) (ياقوت الحموي، معجم البلدان: 71/1)، فـ(مها يبرين) تُجسّد مفارقة بين الجمال الحي ("مها يبرين") وخراب الأماكن بعد قتل أهلها، كتعبير عن الحنين والحزن والفقد مع العفّة ورباطة الجأش.

وقد كان لأيتوس أصحاب الإمام الحسين الأثر الكبير في أعدائهم فقد ورد أنّ عمرو بن الحجاج صاح بأصحابه في يوم الطف" أتدرون من تقاتلون؟ تقاتلون فرسان المصر، وأهل البصائر، وقومًا مستميتين لا يبرز إليهم أحد إلا منكم إلّا قتلوه على قلتهم، والله لو لم ترموهم إلّا بالحجارة لقتلتموهم" (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك-:: 436/5).

فأصحاب الحسين عليه السلام أهل البصائر، وأشجع الفرسان نفوسهم طاهرة، وقلوبهم خاشعة، وعيونهم دامعة من خشية الله، ورباطة جأش، وعزيمة لا تلين وثبات على الحق، وصدق وأخلاص ووفاء، وهذه الشمائل والصفات الكريمة زادت من إيتوسهم في أعدائهم قبل أصحابهم.

فهم الأبرار الأخيار وقد وصفهم الإمام الحسين بنفسه إذ يقول فيهم وفي أهل بيته: "فإنّي لا أعلم أصحابًا أوفى ولا خيرًا من أصحابي، ولا أهل بيت أبر وأوصل من أهل بيتي". (ابن الأثير، الكامل في التاريخ: 166/3).

فهذه شهادة من أمام عصرهم ووراث الرسول الأعظم، فهي أعظم شهادة لهم بالفاء والنصيحة والصدق والبر وصلة الأرحام.

المبحث الثاني:

الثاني الإيتوس الخطابيّ: وهو ما ينشأ داخل النص وما يتعلق بصورة مبدع الخطاب ويتجلى الإيطوس الخطابيّ عند أرسطو من الحجة التي تستمد قوتها من الصورة التي تتكون للمتكلم لدى المتلقي" فعلى قدر

نصاعة تلك الصورة وحسن هذا الأثر تتهيأ للخطيب فرص الفوز بإعجاب الجمهور وكسب ثقتهم وتتيسر له سبل استمالتهم واقتناعهم". (د. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب:97)

فالإيتوس على وفق هذا التصور متعلق بالتلفظ نفسه، وليس بمعرفة خارجة عن الخطاب، فلكل تلفظ يمنح ضمنيًا صورة لذات ملقي الخطاب، لهذا فإنَّ الخطيب بمجرد شروعه في الكلام يترك انطباعًا عن ذاته. (الحجاج بالإيتوس في الخطاب الساسيّ: 40.).

ويرى شاردود ومانغينو أنَّ كل فعل لغويّ يسهم في بناء صورة للذات المتكلمة، فمنذ شروع المتكلم بالحديث فإنَّ ما نقوله يظهر جزءًا من كينونة المتكلم وما هو عليه سواء تم ذلك بإرادة المتحدث أم تمَّ ذلك بطريقة عفوية. (باتريك شارودو – دومنينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب:231)

والايتوس الخطابيّ هو الذي عني به أرسطو ولا يعتد بالايتوس غير الخطابي (الإيتوس القبلي)، فالايتوس على وفق هذا التصور متعلق بالخطاب نفسه.

ولهيأة الخطيب أمر بالغ في الإيتوس والتأثير فقد خطب الحسين عليه السلام وعليه إزار، ورداء، ونعلين، وخطب راجلًا، وراكبًا، ومتكئًا على قائم سيفه (أبو جعفر الطبري- تاريخ الرسل والملوك-: 440/5)، وللسيف دلالة مهمة على التأهب والعزم على المواجهة والثبات في الموقف وعدم التراجع.

وقد وظف الإمام الحسين عليه السلام الإيتوس الخطابي مع الهيأة والشكل من أجل الإبلاغ وإلقاء الحجة على أعدائه، بل هي رسائل للأجيال القادمة، وفيه توجيه مهم لهذا الفعل فإلى الآن نرى أثر الحسين في مختلف الشعوب والمفكرين حتى من غير المسلمين، فهو حامل القران الكريم، وهو

من أهل البيت الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم تطهيرًا، فقد ورد" أنَّ الحسين عليه السلام ركب فرسه وأخذ مصحفًا ونشره على رأسه ووقف بإزاء القوم وقال: يا قوم إنَّ بيني وبينكم كتاب الله وسنة جدي رسول الله صلى الله عليه وآله، ثم استشهدهم عن نفسه المقدسة وما عليه من سيف النبي ولامته وعمامته فأجابوه بالتصديق". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:243).

على الرغم من الهيأة التي كان الحسين عليه السلام عليها ونشره المصحف على رأسه ونسبته إلى جده المصطفى صلى الله عليه وآله إلى أنَّ القوم قد طبع الله على قلوبهم ووقفوا ضد الحسين وأهل بيته وأصحابه، ولم يكونوا مستعدين لترك يزيد واللجوء في صف الإمام الحسين عليه السلام.

والأيتوس الخطابي، ويقسم على قسمين أيضًا:

1- أثر إيتوس الخطاب في الموافق للباث:

مما جاء من أثر إيتوس الحسين عليه السلام، في خطبة له في أصحابه بعد نزولهم في أرض كربلاء قال: " أمّا بعد فقد نزل بنا من الأمر ما قد ترون، وإنَّ الدنيا قد تغيرت وتنكرت وأدبر معروفها، ولم يبقَ منها إلّا صبابة كصبابة الماء وخسيس عيش كالمرعى الوبيل ألا ترون إلى الحق لا يعمل به والباطل لا يتناهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله، فإنّي لا أرى الموت إلّا سعادة والحياة مع الظالمين إلّا برمًا". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:200).

ومما ورد عن زهير بن القين من كلام قاله بعد الاستماع إلى الحسين عليه السلام الذي قال فيه " إذ قام زهير فقال: " سمعنا يا ابن رسول الله مقالتك ولو كانت الدنيا لنا باقية وكنا فيها مخلدين لآثرنا النهوض معك

على الإقامة فيها". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:200)

فقد أثر إيتوس الخطاب الحسينيّ في زهير بن القين، الذي يرى أنّه لو كان في الدنيا خلود لما تأخر عن نصرة سيد الشهداء والنهوض معه والاستشهاد بين يديه، كيف وهي حياة واحدة نهايتها بموت الإنسان والخلود إمّا في الجنة وإمّا في النار.

وقال برير بن خضير " يا ابن رسول الله لقد منَّ الله بك علينا أنْ نقاتل بين يديك، تقطّع فيك أعضاؤنا، ثُمَّ يكون جدُّك شفيعنا يوم القيامة". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:200).

الله تبارك وتعالى شرفهم ومنَّ عليهم إذ جعلهم من أنصار الحسين ابن رسول الله وابن عليّ وفاطمة، فهذا كله من أثر إيتوس الحسين في أصحابه وأهل بيته، فلم يكن أحدٌ منهم يرغب في ترك الحسين على الرغم من أنّه أباح لهم ذلك وقال اتخذوا هذا الليل جملًا، وهو تعبير مجازي عن الستر، حتى لا يعرفُ من يترك الحسين.

2- أثر إيتوس الخطاب في المخالف للباث:

ومما ورد في خطبة الإمام الحسين عليه السلام في الحر الرياحيّ وجيشه " قال أبو مخنف: عن عقبة بن أبي العيزار، إنَّ الحسين خطب أصحابه وأصحاب الحر بالبيضة، فحمد الله وأثنى عليه... فأنا الحسين بن علي، وابن فاطمة بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم، نفسي مع أنفسكم، وأهلي مع أهليكم، فلكم فيّ أسوة، وإنْ لم تفعلوا ونقضتم عهدكم وخلعتم بيعتي من أعناقكم، فلعمري ما هي لكم بنكر، لقد فعلتموها مع أخي وابن عمي مسلم، والمغرور من اغتر بكم، فحظكم أخطأتم ونصيبكم ضيعتم، ومن بنكث فإنّما ينكث على نفسه، وسيغنى الله عنكم والسلام عليكم

ورحمة الله وبركاته". (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري- تاريخ الرسل والملوك-:: 5/ 403).

وتميز الإمام الحسين عليه السلام بجهارة الصوت، قال الطبريّ " ثم نادى بأعلى صوته دعاءً يُسمع جلَّ الناس". (أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري - تاريخ الرسل والملوك-: 424/5).

وعدَّ جهارة الصوت من أخطر أدوات الخطيب وتدخل في حجة الإيتوس، لما لها من أثر في متلقي الخطاب، وقد كانوا يمدحون جهارة الصوت، إذ هو مما يزيد في حسن الخطابة وجلالة الموقف (ابن وهب الكاتب (ت337هـ) البرهان في وجوه البيان: 211).

فالسينوغرافيا ترتبط بالمكان والإضاءة والموسيقى والمؤثرات الخاصة وهي تدخل في إطار تأثيث الفضاء على نحو يجعله ظاهرًا على وفق ما يطرحه المشهد في المواقف والمضامين، بيد أنَّ السينوغرافيا في الإيتوس تتعلق بما ينشئه المتلفظ في حال الخطاب مثل جهارة الصوت والرداء الذي يرتديه الباث أو الخطيب. (د. علي الشعبان، الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته: 27-28).

والذي نلحظه في هذه الخطبة الحسينية أنها كانت في جيش الحر بن يزيد الرياحيّ، وقد عمد الحسين عليه السلام على التعريف بنفسه وأنّه ابن رسول وابن فاطمة، وهذه التلفظات تعطي انطباعًا عن ذات الباث، فهو جاء بأهله وأصحابه، ولحظة الخطاب هنا تمنح إمكانية تغيير الصورة التي شكلها متلقي الخطاب وهم هنا(جيش الحر)، عن الصورة المسبقة النمطية التي تبنتها السلطة، فالحسين جاء بأهله وأصحابه، هذا الأمر جعل ايتوس الحسين مؤثرًا وبالأخص في الحر الرياحيّ أذ نصر الحسين واستشهد بين يديه على الرغم من أنّه كان قائدًا في جيش عبيد الله بن زياد.

ويمكن أنْ نلمح هذا الأيتوس في خطبة علي بن الحسين السجاد عليه السلام في مجلس عبيد الله بن زياد في الكوفة فقد " أومأ إلى الناس أن اسكتوا فلما سكتوا حمد الله وأثنى عليه وذكر النبي فصلى عليه، ثم قال:

أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني فأنا عليٌّ بن الحسين بن علي بن أبي طالب، أنا ابن من انتهكت حرمته، وسلبت نعمته وانتهب ماله وسبي عياله... فارتفعت الأصوات، وقالوا: هلكتم وما تعلمون". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:333).

فالذي نلحظه أنّ الأثر الذي تركه علي بن الحسين وايتوسه تولد من خطابه بعد تعريفه بنفسه ونسبته إلى رسول الله صلى الله عليه وآله، إذ قالوا بعد أن سمعوا خطابه " نحن يا ابن رسول الله سامعون مطيعون حافظون لذمامك، غير زاهدين فيك ولا راغبين عنك فمرنا بأمرك يرحمك الله فإنا حرب لحربك وسلم لسلمك". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:333).

لكنَّ هذا التأثر آنيٌ في ساعة الخطاب فهم كانوا فاقدين للإرادة وغير مستعدين للتضحية ومواجهة جيش يزيد بن معاوية.

والذي نلحظه أنَّ عليًا السجاد عليه السلام، لم يطل في التعريف بنفسه ونسبه في مجلس عبيد الله بن زياد، فهو معروف بالكوفة، فجدّه أمير المؤمنين كان حاكمًا لها، ويعرف الناس فضله وقدمه في الإسلام، وعكس هذا الأمر حصل في الشام إذ نلحظ أنَّ السجّاد عليه السلام اعتمد على إيتوس الخطاب والتفصيل في نسبه، نلمح ذلك من خطبته في مجلس يزيد الخليفة الأمويّ، فقال عليٌّ بن الحسين بعد أن حمد الله وأثنى عليه: "أيها الناس أعطينا ستًا، وفضلنا بسبع أعطينا العلم والحلم والسماحة والفصاحة والشجاعة والمحبة في قلوب المؤمنين، وفضلنا بأنَّ منا النبي الصديق

والطيار وأسد الله وأسد رسوله وسبطا هذه الأمة، أيها الناس من عرفني فقد عرفني ومن لم يعرفني أنبأته بحسبي ونسبي أيها الناس أنا ابن مكة ومنى انا ابن زمزم والصفا". (السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام:372).

الذي نلحظه أنَّ عليًّا ابن الحسين أطال في التعريف بنفسه في مجلس يزيد ابن معاوية، وذلك لأنَّ الكثير من أهل الشام لا يعرفون من هو ولا من أبوه، فقد مورس ضدهم التضليل الإعلاميّ، بأنَّ هؤلاء خوارج قد مكن الله الخليفة منهم، فقد كانوا في فرح وسرور.

فقد أنشأ عليٌّ السجاد عليه السلام صورة جديدة مخالفة للصورة النمطيّة السابقة التي كان يحملها المتلقون عنه وعن أبيه وأهل بيته، فقد أعاد بناء صورة جديدة ناصعة مخالفة للصورة النمطيّة السابقة للخطاب، فقد أوضح من هو، ومن الحسين وأهل بيته، فكوّن ايتوسًا جديدًا.

الخاتمة:

بحمد الله ومنّه وصلنا إلى ختام هذا البحث وحريٌّ بنا أنْ نذكر بعض النتائج التي وصل إليه البحث:

1- الايتوس من الوسائل المهمة في الإقناع، فهو القسيم الثالث للباتوس واللغوس.

2- إنَّ أثر حجة الايتوس واضح وجليٌّ في الخطابات والنزاعات سواء كان على مستوى الموافق أو المخالف.

3- أثر ايتوس الإمام الحسين عليه السلام في مخالفه ومن هو ضده، فقد ترك (الحر الرياحيّ) وهو قائد في جيش (عبيد الله بن زياد) جيش الشام ولحق بمعسكر الحسين بل واستشهد معه.

4- لاحظنا اختلاف خطاب الإمام علي بن الحسين في الكوفة فلم يطل في التعريف بنفسه ونسبه، فهو معروف لدا أهل الكوفة، في حين أطل في التعريف بنفسه ونسبه في مجلس يزيد في الشام، فقد مورس التضليل ضد الحسين وأهل بيته فقد قيل أنَّ هؤلاء خوارج مكن الله الأمير منهم.

5- لاحظنا أثر ايتوس نسوة أهل بيت الحسين فعلى الرغم ما بهنَّ من الثكل وما لحقهنّ في واقعة الطف لم يكن يبدو عليهن الانكسار بل هنَّ بغاية الشموخ والرفعة، فالعزة لله ولرسوله وللمؤمنين.

6- لاحظنا أثر أصحاب الإمام الحسين، فقد كان لهم إيتوسًا مؤثرًا فقد وصفهم عمرو بن الحجاج بأنهم (أهل البصائر، وقوم مستميتون في نصرة الحسين عليه السلام)، وهذا يدلُّ على منزلتهم الرفيعة وأثر هذه المنزلة في أعدائهم قبل أصحابهم.

ثبت المظان:

1. ابن وهب الكاتب (ت337هـ) البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي، مطبعة العاني، بغداد، الطبعة الأولى، 1967.

2. د. الحسين بنو هاشم، بلاغة الحجاج الأصول اليونانية، دار الكتاب الجديد المتحدة، ليبيا، الطبعة الأولى، 2014.

3. حسن المودن بلاغة الحجاج بالأيطوس والباطوس بحوث وترجمات، دار كنوز المعرفة، عمان- الأردن، 2021.

4. أبو جعفر الطبريّ تاريخ الطبري (تاريخ الرسل والملوك)، تحقيق محمد أبو الفضل، الطبعة الثانية، دار المعارف، مصر.

5. د. كمال الزماني، الحجاج بالإيتوس في الخطاب السياسي، عالم الكتاب الحديث، الأردن، 2019.

6. د. علي الشعبان، الحجاج في الخطاب، ضمن مؤلف الحجاج مفهومه ومجالاته، عالم الكتاب الحديث- عمان الأردن، 2010

7. د. كريم الباسطي، الحجاج في الخطاب الوعظي دراسة وتحليل لبلاغة خطاب الوعظ عند الحسن البصري، دار ركاز- الأردن، الطبعة الأولى، 2023.

8. أرسطو، الخطابة، ترجمة عبد الرحمن بدوي، دار الرشيد، العراق، 1980.

9. د. حاتم عبيد، في تحليل الخطاب، دار ورود، الأردن، الطبعة الأولى، 2013.

10. مجد الدين الفيروزآبادي، القاموس المحيط، تحقيق مكتب تحقيق التراث في مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان، الطبعة الثامنة، 2005.

11. ابن الأثير، الكامل في التاريخ (ت 630هـ)، تحقيق عمر عبد السلام، دار الكتاب العربي، بيروت- لبنان، الطبعة الأولى، 1997.

12. أوليفيي روبول، مدخل إلى الخطابة، ترجمة رضوان العصبة، دار أفريقيا الشرق- المغرب، 2017.

13. ياقوت الحموي، معجم البلدان، دار صادر، بيروت- لبنان، 1977.

14. باتريك شارودو – دومنينيك منغنو، معجم تحليل الخطاب، ترجمة عبد القادر المهيري – وحمادي صمود، دار سيناترا تونس، 2008.

15. السيد عبد الرزاق المقرّم، مقتل الحسين عليه السلام، منشورات مؤسسة الخرسان، بيروت- لبنان، 2005.